

علم التوثيق (حكايات ومفارقات)

نزیه أبو نضال*

تكاد العمليات التوثيقية ترتقي إلى مصاف العلوم الإنسانية البحتة من حيث اشتراطاتها ودقتها وخضوعها لمعايير عقلية حاسمة، تجنبها الهوى والزلل، أو ما يلحق بالذاكرة من آفات الزمن، كالسهو أو النسيان، وأحيانا من رغبات (مشروعة) بأن يكون صاحبها (شاهد عيان) على ما يوثق.. فالحكي ليس مثل الشوف، كما يقال، خاصة لمن تغرّب أو مات مجايلوه.

نحن إذن أمام ظاهرة ملتبسة يلتقي فيها العلم بنقيضه، أو الهدف وطرق الوصول اليه. ومن هنا ربما تبرز مفارقات التوثيق وحكاياته وإشكالاته.

ويكاد ينعقد الإجماع بوجود عناصر أساسية في التوثيق لا بد من توفرها منها: واضع الوثيقة، واسمها، وناشرها، ومكان وتاريخ النشر، وموضع الشاهد من الوثيقة كلها، وهي تسمية عامّة لمختلف أنواع الوثائق، بمختلف أنواعها وأشكالها، بما فيها الكلام المنقول مشافهة.

ولكن إذا لم تتوفر كل عناصر التوثيق فلا بأس من ايراد ما تتوصل اليه، مع الاشارة الى عناصر النقص، فقد تستكمل الشروط التوثيقية لاحقا.

ولقد أتيت لي، وقد اشتغلت طويلا في حقل التوثيق، أن ألمس لمس اليد كم من الأمور الخاطئة يمكن أن تتسرب إلى عملك التوثيقي، رغم كل ما تبذله من حرص المدقق ونباهة الباحث.

ولعلنا نستحضر هنا واحدا من أخطر وأهم العمليات التوثيقية التي جرت في التاريخ العربي

* باحث من الاردن

والاسلامي، وهو علم الحديث، وما وضع له من قيود، ولرواته وأسانيده من شروط .. حيث اهتم العلماء على مر العصور بالحديث النبوي جمعا وتدوينا ودراسة وشرحاً، واستنبطت حوله العلوم المختلفة كعلم الجرح والتعديل وعلم مصطلح الحديث وعلم العلل وغيرها، وتوضيح المقبول والمردود مما ورد عنه. وامتد تأثير هذه العلوم في المجالات المختلفة كالتاريخ، وما يتعلق منه بالسيرة النبوية وعلوم التراجم والطبقات.. الخ.. لنصل في خاتمة المطاف إلى صحيحي مسلم، والبخاري الذي يُقسّم بحياته بسطاء الناس: "وحياة سيدي البخاري". ثم لنكتشف بعد كل هذه الجهود الجبارة أن بعض ما ورد من أحاديث لم يَخُلْ من الزلل البين، كالعمر الذي تزوجت به السيدة عائشة.. ناهيك عن الإسرائيليات! ووفق يقين جازم من كبار علماء المسلمين.

انزياح كمبيوترى

وعود الى التوثيق.. فحين كدت أنجز كتابي تمرد الأثنى الذي اشتمل على دراسات لأكثر من ٥٠ رواية نسوية عربية وجدت من المفيد أن أُلحق به ملحقا ببليوغرافياً لرواية المرأة العربية الذي ضم ١١١٨ رواية بأقلام ٥٢٩ روائية (١٨٨٥ - ٢٠١٣)، وقد نشرت هذه البليوغرافيا في مجلة الجديد الصادرة عن دار الشروق، عمان.. فكان أن حدث انزياح كمبيوترى، خلال طباعة المجلة، أدى الى حدوث خلل متكرر بين اسم الكاتبة واسم روايتها.. وكان يمكن لبعض البسطاء اعتماد هذه القوائم بأخطائها، رغم إيضاح الخطأ في العدد اللاحق.. لكن الطريف جاء حين اكتشف أحد الباحثين الأمر، ودون أن ينتبه لهذا الانزياح فانقض عليّ تنكيلا، ساخرا من جهلي وافتقادي لمنهج التوثيق العلمي، رغم أن فتحي البس (رئيس التحرير) أوضح الأمر متحملا (كمطبوعة) المسؤولية، ولكنه لم يرمش له جفن، وواصل عمليات التنكيل لأسباب سياسية، على الأرجح، والأطرف في كل ذلك اتهامى بالسطو على دليل الكاتب الأردني الصادر عام (١٩٩٢) في انجاز هذه البليوغرافيا، وفي العودة لهذا الدليل الحاسم وجدت فيه ٣٠ كاتبة، ويحتوي على ٥ روايات نسوية فقط لا غير (اثنتان لسميحة خريس وثلاثة لهيام الدردنجي) من أصل ١١١٨ رواية، وهكذا فإن ما يبدو علما يتحول بقدره معرض أو جاهل إلى نقيضه.

أحكام مرتجلة

وقد يتطوع البعض ممن يحمل لقب دكتور ليكشف أن أول رواية أردنية صدرت العام ١٩٦٤، وهي "زائرة نصف الليل" لعبد الكريم فرحان، ولأنني أشتغل منذ سنوات على توثيق الإبداع الأردني، فقد عدت إلى ببليوغرافيات الرواية الأردنية التي صدرت في كتابي "علامات على طريق

الرواية في الأردن" (دار أزمنة، عمان، ١٩٩٦)، لأجد أنه قبل رواية فرحان (١٩٦٤) صدرت ٣٠ رواية، منها لمحمد المحيسن "الأسير"، ١٩٣٣، روكس العزيمي "أبناء الغساسنة"، ١٩٣٦، وهناك روايات اشتهرت بتوثيق نكبة فلسطين، منها لعبد الحليم عباس: "فتاة من فلسطين"، ١٩٤٩، ولإبراهيم مشعل: "فتاة النكبة" ١٩٥٧، ولعيسى الناعوري: "بيت وراء الحدود" ١٩٥٩. الموضوع ليس خطيراً، لكنه يؤشر إلى فوضى التوثيق، وإلى استسهال إصدار الأحكام.

ميلاد غالب هلسا وسيرته

في كتابي غالب هلسا وببليوغرافيا مصادره الكتابية وثقت سيرة حياته، من خلال معرفتي المتصلة به منذ عام ١٩٦٤ حتى ليلة وفاته في مشفى الأسد بدمشق في ١٨/١٢/١٩٨٩، وقد اشتمل الثبوت الببليوغرافي لمعظم ما كتب وما كتب عنه، وهي حصيلة عملية جمع توثيقية استمرت أكثر من عشر سنوات، وأكدت من خلال معلوماتي وشهادة شقيقه الأكبر يعقوب هلسا (أبو رامي) أن ميلاده كان في ١٨/١٢/١٩٣٢، وهو نفسه يوم وفاته، ولكن واحدة من صديقاته أصرت أن ميلاده كان في تاريخ آخر، وربما كان غالب قد ذكر أي تاريخ في لحظة ما، لغاية في نفس يعقوب (لا أقصد يعقوب هلسا) فجرى تداول التاريخ الآخر إلى جانب التاريخ الحقيقي.

وفي توثيق سيرة حياته التقيت بالعديد من أصدقاء الطفولة والشباب (صالح حمارنة مثلاً) ومن رفاقه في مصر الذين عاشوا معه العمل الحزبي والثقافي وتجربة السجون والمعتقلات، (د. صلاح حافظ مثلاً) وقدموا لي شهادات دقيقة وموثقة عن سيرة غالب الذي أطلقوا عليه لقب النبيل، غير أن واحداً فقط ومن خارج السجن، قدم شهادة تشبه النميمة، في كتابه "النميمة"، ومثلها فعل كاتب عراقي في كتاب آخر عن "حكاية الصبي والصندوق".

وثمة ثالث لا أحب ذكر اسمه اتهم غالب بمعاداة كل ما هو فلسطيني حتى الشعر الفلسطيني والموسيقى الفلسطينية، رغم أنه طرد من مصر لدفاعه عن فلسطين، وكاد يدفع حياته وهو في إذاعة الثورة الفلسطينية وفي خنادق المقاتلين، أيام حصار الموت في بيروت ١٩٨٢. و فقط لأن غالب كان آنذاك في خندق سياسي مضاد..

نعم قد تختلف زوايا الرؤية للشخص الواحد أو للواقعة نفسها، ولكن يبقى هناك ما هو أقرب إلى الحقيقة، إذا ما صدقت النوايا، وابتعدت عن تصفية الحسابات مع الموتى.

* *

مذكرات أبو إبراهيم الكبير

غير أن أكثر الالتباسات والصعوبات التي واجهتني كانت مع مذكرات أبو إبراهيم الكبير. يقول يحيى يخلف "في إطار اهتمامنا بتسجيل وتوثيق تاريخ الثورة الفلسطينية، بل الثورات الفلسطينية للحفاظ على التجربة ومخزون الذاكرة، يأتي هذا الكتاب الفريد الذي يوثق ملامح هامة من تجربة مناضل وقائد وطني هو (أبو إبراهيم الكبير) أحد القادة العسكريين لثورة ١٩٣٦، وأحد الشهود على أول تجربة كفاح مسلح قام بها الشيخ عز الدين القسام في أحراش يعبد.. يروي ذكرياته ويوميته... قائد عسكري، قلبه لوطنه وشعبه، يوثق مسيرته ومسيرة رفاقه وشعبه ببساطة، وتلقائية.. أدلى أبو إبراهيم الكبير بشهادته بأمانة وصدق، فكانت شهادة على زمن النهوض والكبوة، إنها شهادة على تجربة أصبحت تراثاً تنهل منه الأجيال". ورغم هذه الشهادة فالأمر لم يكن سهلاً.. في شهر نيسان من عام ١٩٧٧، أي قبل وفاته بحوالي سنتين، كان أبو إبراهيم الكبير في زيارة لابنه صلاح (عضو قيادة إقليم فتح) في بغداد، حيث ولدت فكرة إجراء حديث مسجل ومطول معه.. كان عمر أبو إبراهيم آنذاك يناهز الثمانين عاماً، إلا أنه كان يمتلك ذاكرة مدهشة تختزن أدق الحوادث والتفاصيل. وقد استغرق حديث أبو إبراهيم عشرين شريطاً مسجلاً، ضمّنها خلاصة تجربته النضالية الطويلة، وتعتبر بهذا أطول مذكرات كاملة لأحد القادة الميدانيين لثورة ١٩٣٦. ولقد جرى تسجيل مذكرات القائد القسامي أبو إبراهيم الكبير خلال جلسات طويلة ومتفرقة، وتخللتها بعض الأسئلة لاستكمال مختلف جوانب التجربة النضالية الطويلة التي عاشها في مختلف المواقع. وسيكون من الطبيعي والحال كذلك أن يحدث خلال عملية تسجيل المذكرات، بعض التكرار أو أن تتوه، بفعل عامل الزمن، بعض الوقائع والمعلومات. ولا ننسى أن هذه المذكرات، قد سجلت بعد مرور حوالي نصف قرن على وقوعها، ودون العودة إلى الوثائق والكتب التاريخية. وهذه إحدى إشكالات التأريخ الشفوي.. مما احتاج منّا بالضرورة إلى تدقيق ومراجعة، وعمليات توثيق وفق المصادر العلمية التاريخية المؤكدة، وكذلك في البحث عن التقاطعات مع ما صدر من مذكرات ومؤلفات وأبحاث وشهادات تتصل بهذه المذكرات، في مراحلها وميادينها المختلفة، وثبتنا ما هو متقاطع منها في هوامش كل فصل، كي تضيف وربما تصوّب بعض ما أورده أبو إبراهيم في هذه المذكرات التي تمتد على مساحة ٨٠ عاماً، وتشمل فلسطين وسوريا ولبنان والعراق.. وصولاً إلى اليونان وألمانيا وروسيا واليابان وفرنسا ثم عودة إلى لبنان وسوريا وفلسطين وأخيراً في الأردن مستقره الأخير.

ورغم كل ما بذلنا من جهد فإننا بدورنا وقعننا في عدة أخطاء أشار لبعضها مشكوراً عدد ممن قاموا بمراجعة الكتاب بعد طبعه، ومنهم: د. بيان نويهض الحوت، سميح حمودة، رشاد أبو شاور، حسن البطل، عمر صبري كتمتو.

إلا أنه رغم كل ما يمكن أن يسجل على هذه المذكرات من ملاحظات لا بد من الانتباه خلال متابعتها أن صاحبها كما محاوريه في بغداد كانوا مشدودين إلى التجربة القتالية العسكرية لأبو إبراهيم ورفاقه، ولكن يمكن للعين الفاحصة أن تلتقط إشارات بالغة الرهافة والأهمية عن التاريخ الاجتماعي والثقافي الفلسطيني، وصلته بالتاريخ العربي والوجدان القومي، وهذا ما قصرنا في إيضاحه.

الكاشف الفلسطيني

على مدار سنوات بذلت مع الصديق عبد الفتاح القلقيلي جهداً هائلاً لتوثيق سير واصلارات كُتاب فلسطين على مدار ١٠٠ عام، وعلى امتداد القارات الخمس، وكانت الحصيلة ٢١٥٠ كتاباً، أصدر كل منهم كتاباً واحداً على الأقل، وكان بينهم ٣٣٠ كاتبة. احتاج الكاشف إلى خمسة أجزاء، حوالي ٢١٠٠ صفحة من القطع الكبير، ويمكن قياس حجم هذا الانجاز بالمقارنة مع ما توصل إليه آخر المعاجم الفلسطينية وهو معجم طلعت سقيرق الصادر عام ١٩٩٨ إذ بلغ عدد الكُتاب لديه ٨٨٠ كتاباً، بينهم ٥٨ كاتبة. وكان من بين أسباب هذا الانجاز الى جانب الفارق الزمني (١٢ عاماً) انفجار وسائل الاتصال الحديثة: الانترنت (جوجل) والإيميل والهاتف، وإمكانية الوصول إلى الكتاب، وإلى قوائم دور النشر.. الخ.. ورغم ذلك فقد واجهتنا صعوبات لا راد لها، فهذا المصدر يورد اسم كتاب دون تحديد جنسه الأدبي، هل هي قصة أم رواية فنية أم كتابة مقارنة كالسيرة الشخصية أو المذكرات أو الكتابة العاطفية الإنشائية.. الخ..

وفي الكثير من المصادر يرد اسم الكاتب/ة دون الإشارة إلى بلده/ا أو إلى المعلومات اللازمة عن الكتاب كمكان ودار النشر وتاريخ النشر.

وتُشكل الأسماء أحياناً فيستحيل التمييز بين الإسم المذكر والمؤنث، حيث نجد تكرار استخدام الإسم نفسه للجنسين مثل: انعام واحسان وجنان وجمال وجهاد ونازك ونضال.. الخ..

وإلى جانب هذه الالتباسات فقد سقطنا نحن في أخطاء بدائية، وسهونا عن أسماء كبيرة وقريبة منّا، وما زال شريكى أبو نائل (عبد الفتاح القلقيلي) يذكّرني في كل لقاء يجمعنا باسم هذا الكاتب أو ذلك ممن سهونا عنه! وسيكون من حق الآخرين بالتالي أن يسجلوا ملاحظاتهم عما ورد لدينا من أخطاء. وقد نوهنا إلى ذلك في مقدمة الكاشف واعترفنا بأخطائنا وتقصيرنا، ودعونا الجميع للتواصل معنا لتلافئها.. ولكن البعض لم يكتف بممارسة حقه الطبيعي بالنقد، بل حكم علينا بالجهل وبغياب منهج التوثيق، ولا راد لقضاء الله!